

2. كتاب هيفاء مجادلة، هموم المرأة العربية في أدب ليلى العثمان.

قراءة في روايتي "العصعص وصمت الفراشات"

(إصدار: مجمع اللغة العربية، مطبعة الهدى، 2011، 161 صفحة)

تقدّم الباحثة هيفاء مجادلة للقارئ دراسة رائدة في مجال الأدب النسائي الحديث، وفق روایتين حديثتين للكاتبة الكويتية المرموقة ليلى العثمان، وهما رواية "العصعص" (2002) ورواية "صمت الفراشات" (2007). وتركز في دراستها على مسألة لطالما لم تطرح في الدراسات الأدبية والاجتماعية والسيكولوجية، ألا وهي هموم المرأة العربية التي عانت من التمييز والكبت والقهر والاضطهاد عبر قرون. ولم يكن اختيار الباحثة هيفاء للأدبية ليلى العثمان صدفة، وإنما عن وعي وإدراك بين، كون ليلى العثمان تتميز بالكتابة الصريحة والجرئية، بعيداً عن الكتابات الرمزية أو السرالية.

وفي تقديمها للكتاب، تحت عنوان "مبدعة شجاعة ونافذة موضوعية جادة"، يشير البروفسور سليمان جبران إلى أن الباحثة هيفاء مجادلة "لا تهيب السير في حقول الألغام؛ تعرف كيف تميز بموضوعية بين الجوهرى والهامشى، بين الغاية السامية وما يعلق بالطريق إليها من شوائب. الغاية السامية هي رفع الظلم التاريخي عن المرأة، في الكويت، وفي المجتمعات العربية كلها، وكل ما عدا ذلك شوائب وقشور".

تشتمل الدراسة على أربعة فصول، تتناول مجادلة في الفصل الأول عدة محاور منها، أهمّ الإشكاليات التي رافقت ظهور مصطلح «الكتابة النسائية» والتي لم تقف عند حدود التسمية، بل تجاوزتها حول طبيعة هذه الكتابة، ومدى تأرجح النقاد والدارسين بين مؤيد للمصطلح ومعارض له.

بعد استحضار الباحثة للعديد من الآراء حول المصطلح تخلص إلى ثلاثة مواقف أساسية في التعامل مع ظاهرة الأدب النسائي، موقف يقرّ بهذا المصطلح، وبالتالي فهو يقرّ بوجود خصوصية للمرأة وسمات فنية خاصة بكتابتها. وأخر يرفض المصطلح ولا يعترف بوجود تفرقة بين المرأة والرجل في الإبداع الأدبي، وبالتالي فهو يرفض الواقع في فحـ

الخصوصية. وموقف ثالث هو موقف الوسطية، فهو يقرّ من جهة بخصوصية التجربة الخاصة بالمرأة، ومن جهة أخرى يرفض أن تكون هذه الخصوصية نابعة من خصوصية طبيعية تلزم المرأة، وتشكل محددات للأدب الذي تكتبه.

مسألة أخرى تطرحها الباحثة في هذا الفصل ترتبط بتطور الأدب النسائي والمراحل المختلفة التي مرّ بها، بدءاً بالنهضة الأدبية النسائية كمرحلة تقليد ومسيرة الخطّ الإبداعي السائد، وتميزت كتابات هذه المرحلة بافتقار المرأة الكاتبة لخصوصيتها الفنية، والتزامها بالمعايير الاجتماعية وعدم خرق الموضوعات المحظورة. تبعتها مرحلة التمرّد والاحتجاج، بعد ظهور رواية "أنا أحيا" عام 1958 للكاتبة اللبنانيّة ليلى بعلبكي، هذه الرواية التي أدت إلى حالة من الثورة في كتابات المرأة وفق إجماع الكثير من النقاد، تلتها كتابات غادة السمان وسحر خليفة وأحلام مستغانمي. ولا بد من الإشارة أن هذا التمرّد كان نتيجة للكبت والقهر الذي تعيشه المرأة العربية، أو بمثابة تمرّد ضدّ القيود الاجتماعية التي فرضتها البيئة العربية على مر السنين. ثم مرحلة تحقيق الذات نتيجة لانفتاح العالم العربي على الغرب. بدت فيه الكاتبة أكثر وعيّاً بذاتها، وأكثر نضجاً وشمولية بمتطلباتها لحريتها وحقوقها. وحقّقت هذه المرحلة تناميًّا أقوى في ظهور الروايات النسائية، وقد صاحب هذا التراكم الكمي نضج فني وفكري.

ثم تعاقب الباحثة هيفاء مجادلة أبرز الموضوعات التي شغلت الكتابة النسائية منها: قضية التمييز بين الرجل والمرأة، النظرة الدونية للمرأة وممارسة العنف ضدها، فضلاً عن هموم العالم العربي، مثل هزيمة العربي عام 1967 والتي هزت مشاعر المجتمع العربي بكل أطيافه وفئاته. ولا تغفل الباحثة أن تشير إلى إشكاليات واجبـت الكتابة النسائية مثل تهميش الأدب النسائي، والنقد السريع غير الموضوعي لكتابـة المرأة من قبل النقاد والمثقفين، مستعرضة نماذج وأمثلة لمثل هذه الآراء.

في الفصل الثاني تتناول مجادلة الكاتبة الكويتية ليلى العثمان من حيث نتاجاتها الأدبية ورؤيتها الفكرية، كما تبرز نظرتها إلى مصطلح الأدب النسائي، حيث ترفض العثمان هذا

المصطلح ولا تعرف بوجوده. أما نتاجاتها الأدبية فقد توزعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والمقالة والسيرة، لترصد الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي في المجتمع الكويتي. ترصد مجادلة في الفصل الثالث هموم المرأة وقضاياها كما تجلّت في أدب العثمان، أهمّها النظرة الدونية للمرأة وتعرّضها للاضطهاد والعنف، الزواج المبكر، الفارق العمري بين الزوجين، عدم التكافؤ في الزواج وأضرار ذلك على المرأة، تزويج الفتاة دون موافقها، التّنبّيه على ضرورة استقلالية المرأة ثقافياً واقتصادياً، موضوعة الجنس، تشويه صورة الرجل، التفاوت الطبيقي حائلاً أمام الحب، تshireخ علاقات المرأة بالرجل وتركيمها النفسي والاجتماعي، هجاء القدر العائلي والمجتمعي، فرض ثقافة الصمت على المرأة، نظرة المجتمع إلى الأرملة، الفوارق الاجتماعية بين المرأة والرجل، إدانة ازدواجية المجتمع والأفراد، تحكم ذوي القدرات المادية في مصائر الناس.

ثم في الفصل الرابع تتناول مجادلة هموم المرأة بين مضمون الخطاب الروائي والتقنيات السردية، حيث تشير الباحثة إلى العلاقة بين الشكل والمضمون، نأخذ على سبيل المثال مما ورد، استخدام ضمير المتكلم لرفض النظام الاجتماعي السائد والذي يحاول قمع المرأة، ثم المكان المفتوح والمغلق لبلورة الشخصيات لتعبر عن نفسها، بينما الزمان كان متداخلاً في عملها "العصعص" و"صمت الفراشات" ليلتقي الماضي بالحاضر، في حين أن اللغة كانت عاطفية رومانسية، تتلاءم ولغة المرأة، فضلاً عن موتيفات مختلفة مثل موتيف العصفور السجين وموتيف الحلم لخلق عالم مثالي يوتوبى.

وإذن، يجد القارئ نفسه أمام دراسة رائدة في الأدب العربي الحديث، لا سيما موضوعة الأدب النسائي، ودراسة مختلفة عن الدراسات التي سبقتها من قبل الباحثين العرب، يمكن فيها الكثير من العمق، وتشيع فضول القارئ والباحث في آن واحد، وهذا يدلّ على قوة الملاحظة والنقد والتحليل والرؤى العميقه لدى الباحثة هيفاء مجادلة، بآن ذلك من خلال مبني البحث المتتابع، وأسلوب العصري، وطريقة الدراسة التحليلية اعتماداً على نصوص مختارة، والاطلاع العميق على دراسات سابقة تتناول الكتابة النسائية بشكل عام. والمجمل فإن مجادلة، قد سطّرت محوراً جديداً لدراسة الأدب النسائي من جديد.